قراءة في مقال دوركايم

"نقاش حول التربية الجنسية"[1]

أ.د. نور الدين زمام

مخبر المسألة التربويّة في الجزائر في ظل التحديات الراهنة

الملخص:

الحديث عن التربية الجنسية، وعن تعليمها، من الشؤون الاجتماعية والتربوية التي تحتاج إلى نقاش دقيق إنْ من حيث الموضوعات الواجب تناولها أم من حيث أسلوب التناول وشروطه، حسب الوسط التربوي والأطوار العمرية والتعليمية.

ويحاول هذا المقال التطرق لهذا الأمر من خلال استنطاق حوار قديم بين دوركايم وأحد الأطباء الشهيرين في ذلك الوقت، واستعراض الاحترازات العديدة والأهداف المختلفة المتعلقة بتعليم التربية الجنسية.

والهدف هو لفت إثارة الانتباه إلى أهمية تناول هذا الموضوع، واستعراض بدايات النقاش حوله من هذا الحوار سجل بدايت التفكير في تعليم هذا الجانب الحساس للأجيال الناشئة.

Abstract ;

Talking about sex education, and teaching it, is one of the topics that need to be discussed carefully in terms of subjects to be addressed or in terms of the method of handling, and the educational stages involved in this type of education.

The article attempts to explore this subject about reading an old dialogue between Durkheim and famous Doctors at that time, and to review the many safeguards and goals related to teach a sex education.

The aim is to draw attention to the importance of the subject. It sheds light on the requirements and conditions to be considered in teaching this sensitive aspect of the future generations.

[1]- Émile DURKHEIM (1911) : « Débat sur l'éducation sexuelle» Extrait du Bulletin de la Société française de philosophie, 1911, 11, pp. 33 à 47. Texte, reproduit in Émile Durkheim. Textes. 2. Religion, morale, anomie (pp. 241 à 251). Paris: Les Éditions de Minuit, 1975, 508 pages. Collection: Le sens commun.

تمهيد:

تعتبر التربية الجنسية من الموضوعات الحساسة التي تتطلب الكثير من اليقظة والرزانة والعقلانية عند تعليمها وتلقينها للتلاميذ في المدارس والأبناء في البيوت، حيث يقتضي الأمر الأخذ بعين عدة اعتبارات مثل العمر والنوع وما يؤثر على النمو النفسي والجسمي للمتعلم، فضلا عن ضرورة الأخذ بالحسبان العديد من الشروط والاحترازات والطرق والأساليب التي تقتضيها هذه التربية، وهذا النوع من التربية دون التضحية بمضامين وأهداف التدريس لإنجاح التوجيه والتعليم.

أولا– أهداف تعليم التربية الجنسية:

تهتم التربية الجنسية بالطفل والشاب في مراحل نموه المختلفة بقصد تزويده بمعلومات صحيحة وبسيطة، وبأسلوب علمي مثقف يتناسب وثقافة مجتمعه، ويسعى لتنمية اتجاهات سليمة لديه نحو العلاقات بين الجنسين، والشؤون الزوجية، ومسألة الإنجاب.

وتعرفها في الويكيبيديا (باللغة الفرنسية) بأنها تعني "التثقيف عن الجنس، ونقل عدد من القيم والتوصيات، كما يمكن أن يكون هدفها التعبير والنقاش حول المشاعر الرومانسية، والممارسات الجنسية والاحترام المتبادل"[2].

وهي تهدف أيضا "مقاربة إلأى تعليم التربية الجنسية "المتكاملة" (L'approche de l'éducation sexuelle intégrée) التي تتأسس على الحقوق التي تعمل على تزويد الشباب بالمعرفة والمهارات والاتجاهات والقيم

[2] - « Éducation sexuelle», https://fr.wikipedia.org/wiki/%C3%89ducation_sexuelle.

التي يحتاجون إليها لتحديد ميولهم الجنسية وازدهارها، جسديا وعاطفيا، وفرديا، في إطار العلاقات مع الآخرين. وهي ترى الحياة الجنسية بشكل كلي، وفي سياق التطور العاطفي والاجتماعية؛ وهي تقر بأن المعلومات ليست كافية لوحدها.، فالشباب بحاجة إلى أن تتاح له الفرصة لاكتساب المهارات الأساسية وتنمية الاتجاهات والقيم الإيجابية" [3].

وفي هذا الصدد دعت اليونيسكو [4] إلى ما أطلقت عليها بالتربية الجنسية الشاملة l'éducation sexuelle complète (ESC) وهي "طريقة لتناول تعليم "التربية" الجنسية والعلاقات بين الأفراد، تتوافق مع السن، وتنطوي على ثقافيا دقيقة، وهي تستند إلى معلومات علمية دقيقة، وواقعية وترفض أحكام القيمة" [5].

وتتأكد ضرورة تعليم هذا النوع من التربية لأهداف عديدة لعل أهمها تجنيب الأبناء والتلاميذ المعلومات الخاطئة التي قد تؤثر في حياتهم المستقبلية، وتؤدي إلى الانحراف أو الشذوذ؛ منذ أن يبدأ الطفل يكتشف هذا العالم، أو عندما تطرأ على جسم البنت أو الولد تغيرات فيزيولوجية قد تربكهما عوض أن يبحثا عن مصادر غير علمية أو غير آمنة للمعلومات.

---

[3] - **L'approche de l'éducation sexuelle intégrée**, https://www.planning-familial.org/sites/internet/files/20140616_esi_pour-les-jeunes.pdf

[4]- أنظر تقرير اليونيسكو الذي نشر في 2015:

Lire le rapport complet « L'éducation sexuelle complète : Nouvelles données, leçons et pratiques – Étude mondiale 2015 » en ligne sur le site : **www.unesco.org/aids**

[5] - UNESCO, 2009. Principes directeurs internationaux sur l'éducation sexuelle : Une approche factuelle à l'intention des établissements scolaires, des enseignants et des professionnels de l'éducation à la santé. Paris, UNESCO.http://unesdoc.unesco.org/images/0018/001832/183281f.pdf

وحسب تقرير اليونيسكو أيضا فإن التربية الجنسية الفعالة تبدأ في مرحلة الطفولة المبكرة، وتتطور حتى نهاية فترة المراهقة لتصل إلى سن الرشد؛ وهي تتم، كما يؤكد أيضا التقرير ذاته، من خلال معارف ومهارات تتكيف مع مختلف الأعمار، فق عملية مخططة بعناية مع مرور الوقت، مثل أيّ مادة أخرى من المنهاج الدراسي.

ويلخص التقرير أهداف التربية الجنسية الشاملة في عدة نقاط منها:

– "أن يتلقى الشباب تربية جنسية شاملة، تستند إلى مهارات الحياة اليومية، من أجل اكتساب المعارف والمهارات اللازمة لاتخاذ قرارات واعية وصحية، ومحترمة فيما يتعلق بالعلاقات بين الأفراد والجنس".

– لهذه التربية أثر إيجابي على الصحة الجنسية والانجاب Santé sexuelle et reproductive (SSR) وذلك من خلال من تقليص الالتهابات الجنسية المنقولة Infections sexuellement transmissibles (IST)، والحمل غير المرغوب Grossesses non désirées.

– ولا تهدف التربية الجنسية الشاملة، إلى التبكير للنشاط الجنسي، ولكنها لها أثر إيجابي على السلوك الجنسي الصحي، ويمكنها أن تؤخر العلاقات الأولى للمعاشر وتشجيع استعمال الواقي.

كما يلاحظ فإن هذا التقرير هو انعكاس للضغوط التي تعيشها المجتمعات الغربية ومن حذا حذوها، فهي تعالج مشكلا متفاقما، ولا تطرح رؤية بناءة كما هو الشأن في المجتمعات التي لها أهداف أخرى من التربية

الجنسية مثل تلك التي لخصها الباحث محمد الحاج أهداف التربية الجنسية بشكل دقيق، فهو يرى بأنها [6]:

– تساعد الفرد على تفهم طبيعته الجنسية، ونموه الجنسي، من خلال تزويده بالمعلومات العلمية الصحيحة؛

– تؤدي إلى "تنمية المواقف والاتجاهات الجنسية الايجابية لدى الجنسين لمنع الشذوذ الجنسي"؛

– تعمل على "تنمية قدرات الفرد على ضبط دوافعه الجنسية، حتى يتجنب الأخطاء الاجتماعية والخلقية والصحية.

– تُعدّ الفرد وتساعده على بناء حياة زوجية سعيدة في المستقبل.

ويرى الباحث أيضا مثلما هو الأمر في تقارير اليونيسكو إلى ضرورة التمييز بين المراحل العمرية للطفل، فكل مرحلة تشهد نموا نفسيا وجنسيا خاصا فلا بد أن تكون متوافقة مع ذلك.

بمعنى لا بد من التقيد بالطرق والمضامين التي تتلاءم مع كل مرحلة عمرية، مع تقديم التوجيه المناسب الذي يُزاوج بين المعرفة العلمية واحترام الاعتبارات الأخلاقية، فهذا الجاني كما يؤكد إميل دوركايم محفوف بالمعاني الاجتماعية والثقافية والأخلاقية.

مما قد يستدعي اللجوء أحيانا إلى أساليب الإيحاء والتورية وغير ذلك من الأساليب غير المباشرة للتعبير عن معاني محددة دون خدش للحياء،

---

[6] - محمد الحاج علي: **"التربية الجنسية"**، دراسة تحليلية تربوية، ونفسية، واجتماعية، وخلقية، وبيولوجية، وصحية، مكتبة ابن خلدون، الطيبة، https://www.kutub-pdf.net/book/.html

كما فعل الرسول الأكرم عندما وجّه أحد الرجال إلى ضرورة أن ترتدي المرأة لباسا لا يكشف عن حجم عظامها، فاستخدم كلمة العظام بدل تشخيص وتجسيد المعنى، ليصرف الذهن إلى معنى الستر بدل توجيه الخيال لتصور الجسم.

وفي هذا يقول الأديب مصطفى الصادق: "ولا يُعرف له صلى الله عليه وسلم في هذه الأغراض إلا كلماتٌ بيانية جاءت بما يفوت الوصف من الجمال والدقة، متناهية في الحُسن، طاهرة في الدلالة، يظهر في وجه بلاغتها ما يظهر في وجه العذراء من طبيعة الحياء والخفر؛ كقوله في النساء: "رفقًا بالقوارير"، وقوله لأسامة بن زيد، وقد كساه قُبطية فكساها امرأته: "أخاف أن تصف **حجم عظامها**". قال الشريف الرضى في شرح هذه الكلمة: وهذه استعارة، والمراد أن القُبطية برقّتها تلصق بالجسم، فتبين حجم الثديين، الرادفتين، وما يشتد من لحم العضدين والفخذين، فيعرف الناظر إليها مقادير هذه الأعضاء، حتّى تكون كالظاهرة للحظه، والممكنة للمسه، فجعلها عليه الصلاة والسلام لهذه المحال كالواصفة لما خلفها، والمخبرة عما استتر بها؛ وهذه من أحسن العبارات عن هذا المعنى، ولهذا الغرض رمى عمر بن الخطاب في قوله" :إياكم ولبس القُباطيّ فإنها تشفّ تصف. فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا عذرةٍ هذا المعنى، ومن تبِعه فإنّما سَلك فجَّه" [7].

ومع الأخذ بهذه التوجيهات الأخلاقية، يجب التزام الصدق مع المتعلم، وإعطائه المعلومات التي يسأل عنها أو التي يحتاجها بما يتفق وسنه،

[7] مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم، الجزء الثالث، دار الكتاب العربي، بيروت، ص20

بأسلوب علمي بسيط وواضح، مع الاستعانة بالقصص الراقية والأمثلة المناسبة المقربة للمعنى، ووفق ثقافته الأسرية والمجتمعية.

مع تأكيدنا مرة أخرى على التزام الضابط الأخلاقي دائما عكس ما هو الأمر عليه في بعض الآراء المعاصرة، التي تخلت عن كافة التحفظات التي كانت عليها مجتمعاتها، وأصبحت تقدم تعليما ونطا تربويا للشباب بهدف تجنب الأمراض فقط، دون أن يصاحب ذلك لفضائل الأخلاق، بل هي تضحي بالأخلاق وبقدسية هذه العلاقة في سبيل ما تراه ضروريا.

ومن الضروري أن نؤكد أيضا على ما في ثقافتنا من أخلاق فاضلة مثل غض البصر، وآداب الاستئذان، وعدم الاختلاط الفاضح، والابتعاد عن الميوعة والتغنج، خاصة في مرحلة المراهقة لتجنب هدر طاقة الشباب، والتقيد بضوابط شرعية وقانونية كما نجد في النقاش الموالي الذي دار بين دوركايم وبعض العلماء.

ثانيا– دوركايم وضوابط تعليم التربية الجنسية:

ظهر النقاش حول تعليم التربية الجنسية في القرن العشرين، عبر الجدل بين الأطباء والعلماء المهتمين بالصحة والوقاية، أما النقاش الذي سننقله هنا عن عالم الاجتماع إيميل دوركايم Emile Durkheim فيعود إلى سنة 1911، وذلك عندما قدّم دوركهايم في 28 فبراير عرضا عن "برنامج حول التربية الجنسية" تقدم به في السنة السابقة الطبيب الشهير "جاك أميدي دوليريس "Jacques-Amédée Doléris" عضو أكاديمية الطب، وزميل لويس باستور.

وقد عرض دوركايم برنامجا تعليميا حول المسائل الجنسية في المدارس، اقترح أن يُعهد به إلى المعلمين والأطباء؛ ودار في ذلك النقاش أفكارا كثيرة

حول الضوابط التي يجب مراعاتها فيما يخص هذا النوع من التعليم، والمحتويات التي يجب أن يتضمنها هذا النوع من التربية، وجملة التبريرات التي قدمت لتأييد هذا المنحى.

أكد دوركايم في كلمته التي ألقاها،[8]أمام نفس اللجنة التي أكد أمامها الطبيب دوليريس على ضرورة تعليم التربية جنسية، أن كل مجتمع من المجتمعات إلا وقد شهد هذا النوع من التربية بطريقته الخاصة، كما أكد على عدم وجود جدال حول أهمية الصحة الجنسية، وما يتعلق بالاحتياطات المتعلقة بذلك. (p3.)

وعند تعرضه إلى التقرير الذي قدمه الطبيب جاك دوليريس لفت دوركايم نظر الحاضرين إلى أنّه انتقل في خطابه من الحديث عن إجراءات الصحة والوقاية (Hygiène) إلى الأخلاق (Morale)، واستغرب دوركايم أن يتم وضع تشريعات في المجال الصحي والوقائي انطلاقا من الأخلاق.! وألحّ على وجود وظيفتين اجتماعيين يتعين التمييز بينهما ودراستهما بشكل منفصل، والأخذ بعين الاعتبار ردود الفعل المتبادلة بين بعضهما.

فمن وجهة نظر أخلاقية فإنّ السؤال الحقيقي الذي يجب أن يطرح هو لماذا نعتبر العفة أو كبح الشهوة (continence) واجبا؟ وكيف يتم اقناع الشباب بهذا الواجب، وإيصال مبررات ذلك إليهم.

وهو أمر، كما يعلق دوركايم، لا يشير إليه تقرير جاك دولوريس سوى مرة واحدة، حيث اكتفى بالقول بأن الاعتراف بالعلاقات الحرة قد يُفضي إلى مصاعب فيزيقية ومشكلات أخلاقية مثل الولادات غير الشرعية،

[8] – وهي اللجنة التي عرض أمامها الطبيب جاك دوليريس في السنة الماضية (أي سنة 1910) تصورة للتربية الجنسية

والاضطرابات الأسرية، فوجود الزواج المنظم في المجتمع الحالي يعني بوضوح أن العلاقة الجنسية خارج إطار الزواج سيسفر عنها بالضرورة اضطرابات الاجتماعية عديدة، كما أنها قد تؤثر سلبا على الصحة (p3-4)

وأهم ما يجب التأكيد عليه حسب رأي دوركايم إقناع الشباب بأنّ الزواج هو الوضع القانوني الصحيح، وأنّ العلاقات غير الشرعية أمر غير أخلاقي وضار، ولكنه يصر على عدم تناول هذه القضية من خلال تعليم "الصحة الجنسية" l'hygiène sexuelle كما يقترح الطبيب دو لوريس. (p4)

وهو يعتقد بأن توعية الشباب بالجانب الأخلاقي حول ممارسات البغاء يجب أن يتم من خلال اللجوء إلى المعارف العلمية بنوع من التحفظ والحيطة، ويردف فكرته بنقد تحامل الطبيب على التصور الغامض للمعتقدات الدينية للنشاط الجنسي.

ويرد دوركايم على ذلك بتوضيح أن رؤية المعتقدات الدينية لهذا الجانب ليس مقطوعا عن واقع الناس، فقد تشكلت هذه الرؤية في مجرى التاريخ، بغض النظر عن كونها لا تملك ما يعضدها من الناحية المنطقية.

فهي تتوافق مع شيء من الواقع، ويرجع سبب تصورها لغموض الفعل الجنســـي L'acte sexuel، كما ما أشار إليه دو ليروس، "يعني بأنه لا يمكن أن يتساوى مع أفعال الحياة العادية، فهو استثنائي فقط بسبب بعض جوانبه" (p5) ويقول أيضا: "أن الجنس ليس كأيّ فعل، بل على العكس من ذلك، فهو لا مثيل له، ولو بسبب غرابته هذه مكانة خاصة في الحياة الأخلاقية." (p5).

ورغم خصوصية هذا الفعل "فليس هناك أمتن منه لتوثيق الروابط بين البشر، فهو يتوفر على قوة الجمع"(p5)، ويؤكد أيضا على أن التربية

الجنسية لا تنجح، ولا تحقق أهدافها "إذا لم تفهم على أنها تشعر الشاب بالطابع الأصلي والفريد لهذا الفعل المفرد" (Idem)؛ ولذلك لا يجب تبسيط هذا الفعل عند تعليمه للشباب، حتى لا نشوهه، فهناك تداعيات أخلاقية إذا تم تعليم ذلك على أنه مجرد "مظهر من مظاهر الوظيفة البيولوجية، مثل تلك التي تتعلق بالهضم والحركة." (p6)

والهدف من هذا المقاربة الدوركايمية لتعليم التربية الجنسية كما يقول هو نفسه: "أن نغرس في أطفالنا شعورا يجعلهم بمنأى عن الخطأ عند تعليم التربية الجنسية؛ وكما نعلم فإنّ الأديان قد لقنت هذا الشعور بطرق نعرفها، ونحن بحاجة إلى استخدام طرق أخرى، ولكننا نخطئ لما نعتقد أنها أخطأت بالجملة من حيث الطبيعة والهدف المنشود." (p6)

ويرد الطبيب جاك دولوريس على دوركايم بالتأكيد على مجموعة من الحقائق مثل ضرورة "وضع الطفل أمام الفعل المتعلق بالجنس، ولكن من خلال تعليم مناسب لا يميل إلى إخفاء الحقيقة لبعض الوقت، بل بالعكس يجعله يدرك ذلك تدريجيا بدون مواربة، وبدون تعتيم، فإننا قد نصل إلى تحسين وجهة نظر حول العلاقات الجنسية، أفضل مما هي عليه في الحالة الراهنة" (p7).

ويستطر الطبيب فيقول: "ولذلك لا أنطلق من أحكام مسبقة مهيمنة، ولكن من واقع قائم، فهذه الأحكام المسبقة هي للحجب والتعتيم، من أجل البحث عن وسائل، وليس بقصد تأويل أو احترام هذه الأحكام المسبقة، ولكن بهدف تغيير بقدر الإمكان هذا الوضع من خلال التربية" (p7).

ثم عند الحديث عن التعليم يتفق مع دوركايم حول ضرورة الحذر وأخذ الحيطة حيث يقول (p7):

"أما بالنسبة للتعليم، وبالتأكيد أعتقد مع دوركهايم، بأنه ينبغي أن يكون حذرا، وهناك حاجة دقيقة جدا للحشمة والبساطة بشكل أكثر في مثل هذه الأمور، كما ينبغي على المعلم أن يحافظ على الحيطة المناسبة، خاصة إذا كان المتعلمون فتيات، وأعتقد، وهذا ما جربته، وأكدته في التقرير الذي قدمته أنه يمكن أن يقدم لهن تعليما جنسيا شاملا، دون أن نقول لهم سوى أشياء بسيطة وعلمية؛ يمكن أن نجعلهم يعرفون تدريجيا كل شيء فيما يخص التناسل مع تجنب الفظاظة، ومع احترام جميع الحساسيات.

"ولا يمكن أن تؤدي مثل هذه المعرفة الواضحة والدقيقة إلى اللاأخلاقية، يكفي وببساطة لنقتنع أن نفكر في جميع الفتيات اللواتي يعملن في كليات الطب لدينا، فهن يُشرّحن باستمرار الجثث البشرية، ويعرفن آلية الإنجاب، ويحافظن مع ذلك على اتجاه وسلوك وذهنية لائقة على الاطلاق وبعيدة عن الشبهة. ولأنني أرى دائما تحت أعيني مثل هذه الأشياء أجرؤ على تأكيد فعالية والحاجة إلى تربية جنسية بصراحة ومن دون تردد لأي سبب.".

ثالثا– دوركايم وسبب غموض الفعل الجنسي:

بعد الطرح الذي تقدم به الطبيب دولوريس، بين دوركايم أن تناوله للطابع الغامض، بالضرورة، للفعل الجنسي ليس نتيجة تجربة شخصية، بل هو ثمرة لبحوث التاريخية والاثنوجرافية.

وأوضح بأن حديثه عن الغموض والعتمة التي تلف الفعل الجنسي لا يعني بأنه يدعو إلى أن يلقي في روع الطفل انطباعا يشوبه الخوف، والتزام احترام خرافي وغير منطقي؛ فهو، كما يقول، "لا يسعى لاستبعاد المنطق من نطاق العلاقات الجنسية" (p8).

بل، يريد أن يلمح إلى أن التعليم لا يتم "عبر الصور الخارجية التي تكشف عنها، والتي يدرسها الفيزيولوجي، ولكن أيضا عبر المشاعر والأفكار والمؤسسات التي تمنح لهذه العلاقات على وجه التحديد شكلها الإنساني"(Idem)

فهو يصرّ على وجوب أن نبين للطفل الطابع المزدوج للفعل الجنسي، لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بأفكارنا الأخلاقية والاجتماعية، وهذه الضرورات الأخلاقية لهذه التربية كما يقول تلزمنا بأخذ الكثير من الحيطة عند تدريس الصحة الجنسية.

وبعد أن عرض دوركايم فكرته متدخل منسق النقاش واسمه السيد بيرو Bureau، لإثارة مسألة الأخلاق عند الحديث عن تعليم التربية الجنسية، فهو يرى بأن النقاش يحتوي سؤالا وحيدا وهو : "لماذا هناك أخلاق جنسية، وما هي الأسباب المقبولة لذلك، والتي لها أثر على الضمير، ويمكن أن تمنح لأولئك الذين نطلب منهم التحلي بها؟ وبكلمات أخرى لماذا العفة *Continence* ؟ "(Idem).

وقد أردف أيضا بالتأكيد على "ضرورة إدخال بعض الاعتبارات النفعية، التي يمكن أن تكون بمثابة مكابح فعالة جدا: وإلا وإذا ركزنا فقط على القواعد الأساسية النظرية، لن نخرج من التجريد ولن نلمس حقا عقل المراهق" (p9).

وكشف الطبيب أن هناك اعتبارات نفعية هي أساس للأفكار الدينية أو الفلسفية فيما يتعلق بالأمور الجنسية، ولكنه يعلق بأنها لا تزال غامضة وملفوفة، ولم تظهر بعد بوضوح إلى النور.

ويبسط الطبيب الأمر ويرى بأنه لا يجب أن نبحث بعيدا عن السبب الذي وراء الطابع الغامض للفعل الجنسي، فهو يعتبر المبالغة والغموض والتشويش الذي تمارسه معظم الشعوب في العصور القديمة مجرد ردود دفاعية : "فإن القواعد المبالغ فيها والخرقاء للامتناع تتخذ في كل الأزمان بغرض دفاعي اجتماعي من طرف الديانات والفلسفات" (Idem).

ويرد دوركهايم على هذه التصورات بالتأكيد على خصوصية السلوك الإنساني، خاصة فيما يتعلق بموجهات أفعاله، ويقول أيضا: فمن المؤكد أن الانسان في هذا العالم له معنى خاص، ونحن نمنحه قيمة لا تضاهى مقارنة بالكائنات الأخرى؛ وبشكل خاص ينتج عن هذه الفكرة العامة أن جميع الأفعال التي يقوم بها الإنسان لها، وبسبب ذلك أهمية خاصة تختلف عن نفس الأفعال عند الحيوانات (Idem).

وهو لذلك يؤكد على أن هذا الفعل له خصوصية، وغير اعتيادي، والسبب الأساس لطابعه المثير للقلق والغامض يتأتى من طبيعة هذا الفعل، فهو أحد جوانبه غير أخلاقي، وفي جانب آخر له أساس الأخلاقي؛ ولذلك فلتفسير مسألة الأخلاق الجنسية يجب استحضار هذين الجانبين المتناقضين، والأخذ بالحسبان تعارضهما وترابطهما.

وينصح بأن يدرس الفعل الجنسي بكل مصاحباته الاجتماعية، وآثاره العائلية وغيرها؛ ويوضح بأنه "عندما يدرك المرء تعقد الوقائع الاجتماعية نفهم أن هذه المسألة تتطلب مجموعة من البحوث"؛ ويحاول تبرير هذه ندما القاعدة لأخلاقياتنا الراهنة بعيدا عن المسلمات ذات الطابع ديني أو مذهبي postulat confessionnel (p10).

ويرى بأنه يتعين علينا البدء شرح مبررات الزواج حتى نظهر كيف يرتبط بجميع ما لدينا من أخلاق عائلية، وبالمقابل يشير كيف أننا من هذا المنطلق فإننا نعتبر تجارة الجنس، والعلاقات التي تتم خارج إطار الزواج تخريب لمنظومتنا العائلية: وهو الوسيلة الأولى لجعل الفجور أمرا واقعا.

ثم يبين بأن أفضل وسيلة للفت نظر الشاب إلى هذه السلوكيات غير الأخلاقية في ممارسة الجنس أن نجعله يفهم أسباب هذا الطابع الفريد الحساس للفعل الجنسي، بشكل بسيط، وقد إيمانويل كانط E. Kant كما يقول دوركايم يملك هذا الشعور، حيث يرى بأن تجارة الجنس Le Commerce sexuel تسيء للحس الأخلاقي: فاستعمال إنسان كأداة لإمتاع إنسانٍ آخر أمر يتعارض مع كرامة الإنسان (Idem).

وحسب اعتقاد فسبب القلق الأخلاقي لهذا الفعل أساسه أخلاقي، ويتلخص في الاحترام الذي يكنه الإنسان للإنسان. وتبعا لهذا الاحترام نحتفظ بمسافة بنظرائنا، ونرفض "مثل هذه العلاقات الحميمية، ولا نسمح بها، ونحجب أنفسنا عن أنظار الآخرين، ونعزل أنفسنا، وهذه العزلة هي من جهة علامة ونتيجة لسمة القداسة (والحرمة) التي لدينا"،(Idem) ويقول أيضا: "هناك نوع من التدنيس عند عدم احترام الحدود التي تفصل بين الناس، وعند انتهاك الحدود والتعدي على خصوصيات الغير"(p10).

وفي الأخير يعطي مثالا بالزوجين اللذين بعد أن يصبحا شخصية واحدة، لا أسرار بينهما، فإذا انفصلا مرة أخرى بعد ارتباطهما، ويستقل كل فرد عن الآخر يعود الأمر كما كان سابقا، يصبح الحرمة قائمة بينهما"(p11).

ومن هنا، كما يقول: "يتأتى الحرج الأخلاقي الذي نحسه عندما يجد اثنين من المطلقين أنفسهم في مواجهة بعضها البعض؛ فندرك ما هو غير اعتيادي في هذا الموقف من شخصين أصبحا يشعرا بأنهما غرباء عن بعضهما البعض لرغم عدم وجود أي سر بينهما"(Idem).

الخاتمة

أعتقد أن هذه القراءة السريعة للنقاش الذي دار بين ‘ميل دوركايم والطبيب دولوريس في ذلك الوقت (1911) أعطانا صورة واضحة عن الجدل الكبير، والذي لم يفقد جذوته، حول تعليم التربية الجنسية.

وما يصاحب ذلك من طرح حاد أحيانا للمسألة الأخلاقية، وذلك لعدم التأثير على حساسية الأطفال، وخدش الحياء، أو بسبب التخوف من الأخطاء التي قد ترتكب عند تعليم التربية الجنسية في المدارس.

وبالطبع من الطبيعي أن نستعرض المقاربة السوسيولوجية التي قد تحدّ من اندفاع الأطباء وغيرهم من العلماء عند تصدرهم لمسائل التربية والتعليم، وتبين لهم الأبعاد التي يجب أن تأخذ بعين الاعتبار عند تصميم البرامج والدروس المتعلقة بذلك، بما فيها المسائل الثقافية والاعتبارات الدينية للشعوب المعنية بتربية أبنائها.

ويجدرنا بنا أيضا في مجتمعاتنا العربية الإسلامية أن ننظر إلى هذا الشأن التربوي بعيدا عن الرؤية الغربية التي تسعى لتطبيع العلاقات غير الشرعية حفاظا على الصحة وإن ضاعت الأخلاق والتحفظات.